العصفور الأزرق

باريس مسرح مسلٍ ورهيب، من بين رواد مقهى "بلـــومبير" العديد من الشباب الطيبين والحازمين: فنانون ومثـــالون وكتُـــاب وشعراء، نعم كلهم يبحثون عن تاج الغار الأخضر القديم، لكن لم يكن أياً منهم محبوباً كما كان ذلك المسكين "جارثين"، كان حزيناً بشكل شبه دائم، مدمناً على الشراب، حالماً إلى درجة إنه لم يغب عن وعيه أبداً، كان بوهيمياً لا غبار عليه، وعفوي الخاطر.

بداخل الغرفة القديمة كانت هناك لقاءاتنا المرحة، التي يحتفظ بمرحها جص الحوائط، ما بين بقايا القهوة وملامـــح "ديلاكـــروا" المستقبلية، أشعار ومقاطع كاملة مكتوبة بحروف مهملـــة لاســـم رفيقنا: العصفور الأزرق.

لم يكن العصفور الأزرق سوى "جارثين". ألا تعرفون لماذا كانوا يطلقون عليه هذا الاسم؟ نحن من عمّدناه بهذا الاسم.

لم يكن ذلك مجرد رغبة عابرة منا، لقد كانت لـــذلك الفتـــى

الطيب ملامح النبيذ الحزين، وعندما سألناه عن السبب، وبينما كنا نضحك جميعا بهزل أو كطفوليين، قطّب جبينه ونظرَ بتعمق في السماء المسطحة، أجابنا وعلى شفتيه ملامح ابتسامة مرة:

– يا رفاقي: عليكم أن تعرفوا أن في عقلي عصفورا أزرق، ولهذا السبب...

كل ما في الأمر أنه كان محبا للرفقة الجديدة، عندما يحين فصل الربيع، كان هواء الغابة ينعش رئتيه، كما كان يؤكد لنا الشاعر.

كان يعود من نزهاته محملاً بباقات الفيوليت وبكراسات ضخمة مبكرة، مكتوبة تحت ضجيج الأوراق وأسفل السماء الواسعة الخالية من السحاب، كانت زهور الفيوليت لـ "ناني"، جارته، فتاة ندية ومزهرة، لها عينان زرقاوان جداً.

الأشعار كانت لنا، نحن كنا نقرأها ونصفق لها، كل منا له إعجابه الخاص بـ"جارثين"، كان عبقرياً في حاجة إلى الشهرة، لكن سيأتي زمن قادم، آه، سيطير فيه العصفور الأزرق عالياً، برافو، برافو!، إيه أيها الفتى الغر، مزيداً من الشراب.

مبادئ "جارثين":

من الزهور، زهور الأجراس اللطيفة.

ما بين الأحجار الكريمة، يكون العصفر.
من المساحات الشاسعة،
السماء والحب،
أي، عينا "تاني".

ويكرر الشاعر: أعتقد إنه من الأفضل الإصابة بالاختلال العصبي عن الإصابة بالغباء.

كان "جارثين" يبدو أحياناً أكثر حزناً من المعتاد.

كان يسير في الحدائق، يراقب بلا اهتمام العربات الفارهة التي تجرها الخيول تمر من أمامه، والنساء الأنيقات الجميلات، حين كان يقف أمام واجهة عرض محل مجوهرات، يبتسم، لكن عندما يمر بالقرب من مخزن للكتب، يقترب من واجهته الزجاجية، وحين يشاهد الطبعات الأنيقة، يعلن بجزم عن إحساسه بالغيرة، يقطب جبينه، كنوع من التنفيس عن غيظه، يتوجه بنظره نحو السماء ويتنهد بعمق، يجري باتجاه المقهى بحثاً عنا، مغتاظاً، وحانقاً، يطلب كأس شرابه، ويقول لنا:

– نعم، في قفص عقلي يوجد عصفورا أزرق يطالب بحريته...

كان هناك من يعتقد أنه فاقد لعقله.

وصفه أحد أخصائي الأمراض العصبية بعد أن أخبروه بحالته، بأنه حالة عصبية خاصة، وإن دراسته تؤكد هذا بشكل قاطع.

بشكل قاطع، فإن "جارثين" البائس مجنون.

في يوم من الأيام تلقى من أبيه، عجوز ينتمي إلى مقاطعة نورماندیا، وتاجر فقير، تلقى رسالة تقول ما معناه، تقريبا:

"أعرف ممارساتك الجنونية في باريس، إذا استمر وضعك على هذا الحال، لن تحصل مني على سنتيم واحد، تعال لتأخذ كتبك من مخزني، وعندما تحرقها، أيها الكسول، وكذلك تحرق كتاباتك البلهاء، سوف تحصل على مالي".

قرأ علينا هذه الرسالة في مقهى "بلومبير".

-أتذهب؟

-بالطبع لن تذهب؟

-هل تقبل؟

-هل تستخف بهذه الرسالة؟

نحييك يا "جارثين"، قام بتمزيق الرسالة، وقفزت الدماء في عروقه وارتجل بعض المقاطع، التي تنتهي، فيما أذكر بالأبيات

التالية:

نعم، أنت كسول دائماً،

وهو ما أحييك عليه وأهنئك

مادام عقلي سيظل

قفصا لعصفور أزرق.

منذ ذلك الوقت تغيّر حال "جارثين"، تحوّل إلى ثرثار كثير الكلام، وغرق في حالة من السعادة، اشترى سترة جديدة وبدأ في كتابة قصيدة ثلاثية، تحمل عنوان، بالطبع: العصفور ***الأزرق***.

كل ليلة في لقائنا يقرأ علينا جزءاً جديداً من القصيدة، كانت رائعة، وخارجة عن المعتاد.

كانت السماء جميلة جداً، ورفقة لطيفة جداً، بلاد تنبت كما لو كانت سحر فرشاة "كوروت"، وجوه أطفال تطل من بين الزهور، وعينا "تيني" دامعتان وكبيرتان، وبالإضافة إلى هذا، فإن الله الطيب كان يرسل عصفوراً أزرق يطير، يطير على كل هذا، ودون أن نعرف كيف ولا متى، بنى عشه في عقل الشاعر، حيث بقي سجيناً. عندما كان يريد العصفور الطيران ويفتح جناحيه ترتطمان بجدار الجمجمة، يرفع عينيه إلى السماء، ويقطب جبينه ويشرب كأسه بقليل من الماء، مدخناً أيضاً، سيجارة من الورق.

إنها القصيدة هنا.

في إحدى الليالي جاء "جارثين" ضاحكاً ومع ذلك كان حزيناً. الجارة الجميلة حملوها إلى المقابر.

– نبأ عاجل، نبأ عاجل، أغني لكم آخر جزء من قصيدتي: "تيني" ماتت، **الربيع يأتي و"تيني" تذهب، أوفر زهرات الفيوليت للرفاق**، وينقص الآن آخر جزء من القصيدة، أعرف أن الناشرين لن يكلفوا أنفسهم ولا حتى مجرد قراءة أبياتي الشعرية، وأنتم ستنفضّون عني قريباً، إنه قانون الزمن، ونهاية القصيدة يجب أن يكون عنوانها هكذا: ***كيف يطير العصفور الأزرق باتجاه السماء الزرقاء.***

الربيع في تمامه، الأشجار مزهرة، السحابات ورديـة عند الشروق وشاحبة وقت الغروب، الهواء الرقيق الذي يحرك أوراق الأشجار، يثير الأفرع الجافة بحفيف خاص، لكن "جارثين" لم يذهب إلى الحقل.

إنه هناك، قادم مرتدياً بدلة جديدة باتجاه مقهانا المحبب "مقهي بلومبير"، كان شاحباً، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.

– يا أصدقائي، عانقوني، عانقوني جميعاً، هكذا بقوة، ودعوني، بكل قلوبكم، بكل احساساتكم، ... فالعصفور الأزرق يطير...

ثم بكى "جارثين" المسكين، صافحنا، شدّ على أيدينا بكل قواه وإيمانه.

قلنا له جميعا:

– "جارثين"، الابن المدهش، يبحث عن أبيه، النورماندي العجوز، يا ربات الإلهام، وداعاً، وداعاً، وشكراً، لقد قرر شاعرنا اختبار قواه، إيه، فلنشرب كأساً في نخب "جارثين".

جميعنا رواد مقهى "بلومبير" كنا في اليوم التالي، شاحبين، مرتعبين، والحزن على الوجوه، التقينا في غرفة "جارثين". كان هو في سريره، على الشراشف المخضبة بالدماء، وجمجمته حطمتها رصاصة واحدة، وكان على الوسادة بعضا من مخه... كان رهيباً.

بعد أن أفقنا من ذهولنا، استطعنا أن نبكي أمام جسد صديقنا، ووجدنا أنه كان يحمل معه قصيدته الشهيرة. وفي الصفحات كتب الكلمات التالية:

"اليوم، في اكتمال الربيع، أترك باب القفص مفتوحًا للعصفور الأزرق المسكين".

آي، "جارثين"، ما أكثر من يحملون في عقولهم العصفور نفسه.